اهتمام الشريعة الإسلامية بالحفاظ على مكونات النظام البيئي وتوازناته

The interest of Islamic Sharia in preserving the components and balances of the ecosystem

د.لعمارة ساسية
كلية الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، (الجزائر)
lamarasassia1980@gmail.com

تاريخ الارسال : 2019/11/27	تاريخ القبول : 2019/12/17	تاريخ النشر : 2019/12/25
المؤلف المرسل: lamarasassia1980@gmail.com		

الملخص

يتكون النظام البيئي الطبيعي من مكونات حية (Biota)، ومكونات غير حية(Abiota) فالمكونات الحية تشمل النباتات؛ كالأشجار، والحيوانات؛ كالحشرات، والفقاريات، والكائنات المجهرية، أما المكونات غير الحية فتشمل الماء، والهواء، والتربة، والإسلام بمنهجه الرباني لم يغفل عن الحث على الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها، وهو ما حدا ببعض العلماء إلى اعتبار حفظ البيئة من التلوث مقصد من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، له مقومات من جانب الوجود تتمثل في الحث على الزراعة، والغرس، والاهتمام بالغابات، والمراعي ،والدعوة إلى التشجير، وكذلك له مقومات من جانب العدم تتمثل في مكافحة تلوث البيئة، والدعوة لتنظيف المحيط، وحق الناس في بيئة نظيفة، وحماية الموارد الحيوانية من الاستنزاف والانقراض ..

الكلمات المفتاحية: البيئة، مكونات النظام البيئي، الشريعة الإسلامية، الاهتمام بالبيئة

Abstract:

The natural ecosystem consists of living components (Biota) and non-living components (Abiota(

Living components include plants, such as trees and animals, such as insects, vertebrates, and organisms

The non-living components include water, air, soil, and Islam in its divine approach. Inducing agriculture, planting, forestry and pasture, advocating for afforestation, as well as non-contamination, environmental pollution, advocacy for clean ocean, people's right to a clean environment, protection of animal resources from depletion and extinction

Keywords: Environment, components of the ecosystem, Islamic law, concern for the environment

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد:

إن العديد من الأشياء التي خلقها الله وسخرها لحياة الإنسان التي تلتصق بحياته في هذه الدنيا، والتي ينبغي على الإنسان أن يحافظ عليها ويعتني بها، ومنها عناصر البيئة. وقد أثبتت الشريعة الإسلامية قدرتها على إعادة بناء العقل الإنساني يشكل إيجابي فأولت عناية خاصة لمثل هذه القضايا، والتي تأتي على رأسها قضية حماية البيئة وطريقة تعامل الإنسان معها.

إن البيئة بمكوناتها الأرض والهواء والماء تعتبر الحاضنة الرئيسية التي تحتضن الإنسان ،والنبات والحيوان ،إلى جانب العلاقات المتبادلة فيما بينهم ، والتي تعود بالنفع على الجميع ،فهي السبب الكبير لاستمرار وسعادة الإنسان في الدنيا ،وعلى الأخص الإنسان الذي يعتبر خليفة الله تعالى على الأرض ،وهو المسئول الأكبر عن أي ضرر قد يلحق بهذا النظام البديع ،وهذا ما أثبته العصر الحديث ،خاصة بعد أن استطاع الإنسان الوصول إلى قمة المنجزات الحضارية بعيدا عن توجيهات الخالق سبحانه ، مما أدى إلى إلحاق أشد الضرر بالنظام البيئي ،والكائنات الحية الأخرى التي تشاركه عناصر الحياة الرئيسية .

ولما كانت مهمة الإنسان في الأرض عمارتها واستخدامها بما يحقق أفضل سبل الحياة، كان من الضروري المحافظة عليها، ومن هنا نطرح الإشكالية الآتية:" **هل جاءت الشريعة الإسلامية تحث على المحافظة على مكونات البيئة؟ وما هي الآيات والأحاديث التي أولت ذلك بالعناية؟**

والهدف من البحث: إظهار اهتمام الشريعة الإسلامية البالغ في الحفاظ على النظام البيئي وتوازناته، واعتبار الحفاظ على البيئة مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلامية، وأن التدخل السافر في هذا التوازن وإفساده مخالفة شرعية وجب معاقبة المعتدين عليها. وبيان حرص الشريعة الإسلامية على حفظ المكونات البيئية بأنواعها المختلفة، وسماحها للدولة بالتدخل لحماية هذا النظام، وكبح جماح من يقوم بالتعدي عليه وإفساده.

أولا: منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة

إذ يعد التوازن سمة من سمات الإسلام، وقد اتسمت نظرته إلى جميع القضايا بهذه السمة، فهو متوازن في نظرته للحياة، كما أنه متوازن في نظرته لمكوناتها المادية والمعنوية، وهذا التوازن جلي وواضح في النظام البيئي من حولنا، لذلك وضع الإسلام منهجاً يهدف للحفاظ على البيئة يتلخص في ركائز أربعة:

1-الحفاظ على الدقة المتناهية في التكامل البيئي

خلق الله تعالى هذا الكون بمقاديرَ محددة و نِسَب دقيقة، فالنظام البيئي مكون من كائنات حية، ومكونات غير حية، يتفاعل بعضها مع الآخر وفق نظام دقيق ومتوازن، يحافظ على دور كل مكون من هذه المكونات ؛ تدل في أدائها لوظيفتها على دقة الخلق، وحكمة الخالق، وقدرته سبحانه وهو القائل: "وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا"[1].

2- الحفاظ على التوازن البيئي

إن هذه البيئة خلقت وفق نظام بديع متوازن ,لا يطغى فيها عنصر على آخر، ولا يتضخم مكون على حساب غيره من المكونات الأخرى، فكل عنصر وكل مكون له وظيفة يؤديها، دون أي تقصير أو تعد , وقد

قرر القرآن الكريم ذلك فقال تعالى: "وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"[2] .

3- الحفاظ على أنظمة الحماية التي أودعها الله تعالى في هذه البيئة

خُلقت البيئة محفوظة بأنظمة حماية، وهذه الأنظمة تضمن استمرار النظام البيئي في تحقيق مقاصده وأهدافه فأي مادة أو نظام لابد له من إجراءات حماية، وإجراءات وقاية, إجراءات دفاع تحفظه من الخلل، والنقص، والتلف، والانهيار، تَطفلِ الَأعداء، وتضمن له القيام بدوره وواجبه في هذا الكون بكل دقة واقتدار قال تعالى: "وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ"[3] ومن أمثلة هذه الحماية وجود الغلاف الجوي للأرض، وهو عبارة عن عدة طبقات من الغازات المختلفة، تؤدي أدوا رًا مختلفة تُكَوِّن في مجموعها نظام الحماية للكرة الَأرضية.

4- الحفاظ على الدور المنوط بالإنسان في الاستعمار والاستخلاف

إنّ البيئة خُلقت للإنسان، فهي مسخرة له، وهو مستخلف فيها، ينعم بخيراتها، ويبتهج بجمالها، ويقوم على إعمارها؛ ليحقق مفهوم الاستخلاف، ومظاهر التسخير كثيرة، ومنها قوله

تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) "[4][5]

ثانياً: حرص الإسلام على حفظ المكونات البيئية الحية.

يرتبط الحديث عن وجود حياة في أي بقعة من البقاع، بوجود المكونات البيئية الحية، وتعد هذه المكونات المؤشرَ الصادقَ على وجود حياة، أو إمكانية إيجادها، وهذه المكونات تنقسم إلى قسمين، وهما الثروة النباتية، والثروة الحيوانية، وقد حفلت هذه المكونات بنصوص قرآنية ونبوية كثيرة تحث على الحفاظ عليها.

1-الثروة النباتية:

يعد الغطاء النباتي مظهرً ا مهماً من مظاهر التوازن البيئي، فلا تخلو سلسلة غذائية ينتفع بها الإنسان، أو الحيوان، من وجوده في طبقة من طبقاتها، وله كذلك بالغ الَأثر في حفظ التربة من الانجراف والتعرية، ولا يخفى دوره في حفظ التوازن بين الغازات المكونة للغلاف الجوي، لذلك جاءت الكثير من النصوص الداعية إلى حفظ الغطاء النباتي وحمايته، ومنها:

أ. من القرآن

- قال تعالى :"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"[6].

وجه الدلالة: ذكر الله تعالى في معرض الامتنان على خلقه ما أنعم عليهم به من أشجار وثمار يأكلون منها ويتمتعون بها ,وهم مأمورون بالحفاظ على هذه النعم حتى لا تزول ,وذلك باستدامة ز ا رعتها قال تعالى:" وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ"[7].

وجه الدلالة: ذكر الله تعالى أن إهلاك الحرث؛ أي الزرع والنبات، وتخريبه بأي شكل من أشكال التخريب، هو من صنيع أهل النفاق، وبذلك يكون المسلم مطالباً بحفظ الزروع والنباتات وحمايتها، ومحرماً عليه إهلاكها لغير ضرورة.

ب. من السنة

– عن أنس بن مالك قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مسلم غرس غرسا فيأكل منه إنسان أو دابة أو طائر إلا كانت له صدقة"[8].

وجه الدلالة: حثَّ النبي ﷺ على الغرس والزراعة، وبيَّن فضل هذا العمل وذلك بغرض الحفاظ على التوازن البيئي.

– عن أنس قال :قال رسول الله ﷺ "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فان استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها"[9] .

وجه الدلالة: دلّ الحديث على المبالغة في الحثِّ على الزراعة والتشجير المستمر، وهو ما يُعرف اليوم بالتنمية المستدامة؛ للحفاظ على البيئة، وحماية توازنها، ويفهم من ذلك أيضاً النهي عن التعدي الجائر على الغطاء النباتي.

يقول العلامة المناوي:" والحاصل أنه مبالغة في الحثِّ على غرس الَشجار ,وحفر الَأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها ,فكما غرس لك غيرك فانتفعت به فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع"[10].

ج. من الأثر

ما أوصي به الصديق رضي لله عنه قادة جنده في الغزو ,حيث قال" :وَلَا تُفسِدُوا فِي ا لَأرضِ, وَلَا تُغرِقُنَّ نخلًا وَلَا تُحَرِّقُنَّهَا وَلَا تَعقِرُوا بَهِيمَة وَلَا شَجَرَ ةً تُثِمر وَلَا تَهدِمُوا بَيعَةً[11].

وجه الدلالة :يستدل من وصية الصديق على أن البيئة مسئولية الجميع، ولا يجوز إفسادها حتى ولو كان المسلمون في أرض عدوهم؛ لَأن الإضرار بالبيئة يعود بالَأذى على جميع أهل الَأرض.

2– الثروة الحيوانية

تُعد الثروة الحيوانية من أهم العناصر لاستمرارية الحياة وإدامتها، وتلعب دورا مهما في الحفاظ على التوازن البيئي، وتتعدد أوجه الاستفادة منها، فهي معتمد الإنسان في التغذية، ومخلفاتها من المواد التي تتغذى عليها النباتات، لذلك نجد أن الإسلام قد عني بالثروة الحيوانية، وأمر بالحفاظ عليها وحمايتها، وجاءت نصوص كثير تدل على ذلك، منها:

أ. من القرآن

– قال تعالى:" وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"[12]

وجه الدلالة: ذكر الله تعالى مجموعة من الفوائد والمنافع التي ينتفع بها الإنسان من الحيوانات، وقد جاءت هذه المنافع في معرض الامتنان والتذكير بال نعم، وذلك يوجب على الإنسان أن يحافظ على الثروة الحيوانية، ويستديم الانتفاع بها، ويبذل وسعه في حمايتها لحفظ الاستقرار

البيئي.

–قال تعالى"وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ" [13]

وجه الدلالة: ذكر الله تعالى أن من صفات أهل النفاق أنهم يسعون في الَأرض بالمعاصي، ويقتلون الدواب، ويعقرونها دون وجه حقّ، والمسلم بذلك يكون مطالباً بحفظ الثروة الحيوانية وحمايتها ومحرماً عليه إهلاكُها لغير ضرورة؛ لَن فاعل ذلك مستحق للعقوبة في الآخرة.

ب. من السنة

– عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال :"عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعا فدخلت فيها النار يقال والله أعلم لا أنت أطعمتيها ولا سقيتيها حين حبستيها ولا أنت أرسلتيها فأكلت من خشاش الأرض"[14] .

وجه الدلالة: دّل الحديث على حرمة حبس الحيوانات من غير طعام ولا شراب، وأنّ من يفعل ذلك يستحق العقوبة في الآخرة، وفيه الحث على الرفق بالحيوان، وعدم إيذائه، أو تعريضه للخطر، الذي قد يتسبب في انقراض بعض الأنواع، مما يحدث خللاً في التوازن البيئي.

– عن عمرو بن الشريد قال :سمعت الشريد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :"من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله عز وجل يوم القيامة يقول يا رب إن فلانا قتلني عبثا ولم يقتلني لمنفعة"[15] .

وجه الدلالة: إن نهي النبي ﷺ عن قتل الطيور والعصافير من غير منفعة، لَأن في قتلها إخلالاً بالنظام البيئي المستقر، وقد يترتب عليه إهدار للمحاصيل الزراعية، وإفساد للنباتات، بسبب انتشار الديدان واليرقات والفويسقات التي تتغذى عليها الطيور والعصافير.

– عن ابن مسعود ﷺ قال: "كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فجاء النبي ﷺ فقال: " من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها " ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: " من حرق هذه؟ " قلنا نحن ، قال : " إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار"[16] .

وجه الدلالة: إن أمرَ النبي ﷺ بردِّ فراخ الحمرة إليها يؤكد حرص الإسلام على الرفق بالحيوان والطير ,وفي نهيه عن حرق النمل دليل على اهتمام الإسلام بالتوازن البيئي ,وعدم جواز قتل ما لا يضر من الحشرات والطير؛ حتى تقوم بدورها في حفظ البيئة من الاختلال , فالإسلام أسبق من غيره في الحثِّ على الرفق بالحيوان , والحفاظ على البيئة[17] .

ثالثاً: حرص الإسلام على حفظ المكونات البيئية غير الحية

يُنظر إلى المكونات البيئية غير الحيَّة على أنها السبب الرئيس في استمرار الحياة في هذا الكون، وجاءت الكثير من النصوص والأدلة التي تدل على حرص الإسلام على هذه المكونات وحمايتها من أي ملوثات قد تتسبب في تعطيل الحياة، وإفسادها، وهذه المكونات كما يذكرها المختصون هي الماء، والهواء "ويدخل فيه الغلاف الجوي" ,والتربة وما في باطنها من ثروات.

1– الماء: يعتبر الماء من أهم المكونات البيئية التي تتوقف عليها الحياة، وهو من أعظم النعم الدالة على عظمة الخالق جل وعلا، لذلك جاء الكثير من النصوص يبين أهمية الماء وينهى عن تلويثه وإفساده، ومنها:

أ. من القرآن

– قال تعالى:"وَجَعَلنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيء حَي"[18].

وجه الدلالة: بين الله تعالى أنّ الماء سبب في حياة كل شيء، ولا غنى لكائن حي عنه وبذلك يتوجب على الإنسان أن يحرص على الحفاظ عليه من التلوث أو الجفاف، لَأن في ذلك إهدار ا لحياة جميع الكائنات على هذا الكوكب.

– قال تعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا "[19]

وجه الدلالة: إنّ الماء سبب في إخراج الزرع والنبات الذي يعد أساس غذاء الكائنات الحية بشكل عام،

والإنسان بشكل خاص فيحرم إهدار هذا الماء وتلويثه؛ لما يترتب على ذلك من إفساد للحياة على سطح الأرض.

ب. من السنة

– عن أبي هريرة ,عن النبي ﷺ:" لا يَبُولَنَّ أَحَدُكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه"[20].

وجه الدلالة: نهى النبي عن التبول في الماء وذلك حتى لا يتلوث بدخول القذارة فيه ويفسد بذلك فلا يُنتفع به، وهذا يؤكد حرص الإسلام على حماية الماء من التلوث والتركيز على البول وما شابهه باعتبار أن هذه الأشياء تمثل مصادر التلوث في زمانهم.

– عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل "

وجه الدلالة: نهى النبي عن إيذاء الناس بتلويث مياههم وإفسادها، لأن ذلك يجيز لهم لعنه ويدخل في النهي جميع وجوه التلويث، سواء بطرح المخلفات الصناعية، أو بتوجيه مصارف الصرف الصحي إلى البحار والأنهار؛ لأنّ في ذلك تلويثا لهذه المياه، وإفسادا للحياة البحرية

داخلها.

2– الهواء والغلاف الجوي: يعد الهواء بما فيه من غازات، وعلى رأسها غاز الأكسجين، من الأهمية بمكان؛ لاستمرار الحياة، والمحافظة عليها؛ لإتمام وظائفها الحيوية وكذلك فإن الغلاف الجوي، والذي يتكون من مجموعة من الغازات، يمثل سقفا يحفظ الأرض من تسرب الأشعة الكونية الضارة، ولكن امتداد يد الإنسان لتعبث به، أدَّى إلى مخاطرَ كبيرة، ومنها اختراق طبقة الأوزون الذي كثر الحديث حوله لذلك تظافرت النصوص الدالة على أهمية الهواء، والغلاف الجوي، والنهي عن تلويثه وإفساده، ومنها:

أ. من القرآن

– قال تعالى :"وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ"[21]

وجه الدلالة :بين الله تعالى أن السماء كالبناء، وذلك لوقاية الناس وقد أثبت العلم الحديث أهمية الغلاف الجوي في كونه سقفاً يحفظ الأرض من تسرب الأشعة الضارة، وهذا يوجب الحفاظ على هذا الهواء، وهذا الغلاف كي لا تتسرب الأشعة الضارة، وتفسد الحياة على ظهر هذا الكوكب.

– قال تعالى: "اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ"[22]

وجه الدلالة: دلت الآية على أهمية دور الهواء والرياح في تكوين السحاب ونزول الأمطار، والتي تتوقف عليها الحياة في هذا الكون وبذلك تعظم أهمية الحفاظ على الهواء، والرياح، من التلوث

ب. من السنة

– عن أنس بن مالك قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة أو سبع أو دابة إلا كان له به صدقة "[23]

. عن عبد الله بن حبشي، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار) سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث، فقال: هذا الحديث مختصر، يعنى من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار[24] .

وجه الدلالة: حث النبي على الغرس والزراعة وبين فضلهما، ونهى عن قطع الشجر لغير

حاجة ومعلوم دور الزروع والأشجار في تنقية الهواء من غاز ثاني أكسيد الكربون في عملية

التمثيل الضوئي، والذي تمثل زيادته في الهواء تلوثاً بيئياً خطيرا.

3- التربة: وما في باطنها من الثروات: بما أن الأرض هي مستقر الإنسان، وموقع حياته، يمارس عليها أنشطته المتعددة، ويستخرج من باطنها الثروات والمعادن التي تيسر له سبل الحياة، لذلك فقد وجَّه الإسلام إلى استدامة الانتفاع بها، واستغلالها وإحيائها وعدم العبث بها أو تعريضها للملوثات التي قد تتسبب في تصحرها، أو عدم صلاحيتها للزراعة، والأدلة على ذلك عديدة؛ منها:

أ. من القرآن

- قال تعالى: "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا "[25].

وجه الدلالة: جعل الله تعالى الأرض موطنا للإنسان، ومستقرا لأنشطته، وهو بذلك مأمور بإعمارها، وإقامة الحياة فيها، ومنهي عن تلويثها، وتعريضها للفساد.

- قال تعالى: "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ "[26]

وجه الدلالة: بين الله تعالى أن تمكين الله للبشر في الأرض بغرض الإقامة فيها لإعمارها وإصلاحها، ووفر لهم فيها كل ما يلزمهم من مطعم، ومشرب، وحاجة توفر لهم العيشة

الأرضية، ويكونون بذلك مطالبين بالحفاظ عليها، واستدامة خيراتها، والانتفاع بما في باطنها، مع عدم الإضرار وحسن الاستعمال.

ب. من السنة

- عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال:" من أحيا أرضا ميتة فهي له "[27]

وجه الدلالة: حثَّ النبي على إعمار الأرض، واستصلاحها، وزراعتها، حتى لا تتعرض لمخاطر التصحر، وأسباب الفساد، لذلك جعل النبي مجرد إحياء الأرض بالزراعة، أو إقامة المشاريع التنموية بأنواعها ملكاً لمحييها[28].

رابعاً: دور الدولة الإسلامية في حماية البيئة من التلوث في ضوء القواعد الفقهية

في ظل الحديث عن أخطار التلوث، وآثاره الكارثية، في إفساد الحياة على سطح الأرض, يبرز دور الدولة الإسلامية في الحفاظ على البيئة وحمايتها، لاسيما وأن بعض العلماء قد ذهب إلى أن الدولة الإسلامية أول من أسس لنظام الحجر الصحي؛ حفاظاً على الجنس البشري ،وقد اجتهد بعض العلماء المعاصرين، وفي ظل القواعد الفقهية ,لتحديد دور الحكومات وولاة الأمر في الحفاظ على البيئة؛ انطلاقاً من قول النبي صلى الله عليه وسلم:"**لا ضَرَرَ وَلَا ضِرار**"[29] وذلك على النحو التالي:

1- الضرر يزال[30]: فمن يُحدث ضررا سواء في البيوت أو في الشوارع والأسواق ,يجبر بإزالة الأضرار الناتجة عنه، أو التي تسبب فيها، خاصة إذا تعلق الأمر في إحداث تلوث بيئي يؤثر على الجميع.

2- درء المفاسد مقدم على جلب المنافع[31]: حيث يمكن لولي الأمر أن يمنع بعض المباحات

إذا ترتب على وجودها ضرر بالبيئة يفوق النفع المتوقع منها؛ كمنع بعض المشروعات

الصناعية، أو الزراعية التي تُحدث تلوثاً بيئياً، وكذلك لولي الأمر أن يمنع المزارعين من استعمال بعض المبيدات

الحشرية، أو الهرمونات التي تتسبب بأمراض، وكوارثَ بيئية.

3- تقديم أخف الضررين[32]: ففي الحالات التي لابد من وقوع ضرر بسببها ,مثل حرق بعض

النفايات، أو دفنها، فلولي الأمر أن يأمر بحرقها بعيداً عن المناطق ذات الكثافة السكانية، وكذلك يأمر بدفن النفايات على أعماق كبيرة جداً للتخفيف من آثارها البيئية السيئة.

4- الضرر لا يزال بمثله[33]: فالتخلص أحياناً من بعض الآفات الزراعية والحشرات الضارة, برشها بالمبيدات الحشرية الضارة، يوقع ضررا بصحة الإنسان، فلولي الأمر أن يقرر منع رشها بهذه المبيدات، وتحمل الضرر الأقل ,لا أن يزال بضرر أكبر منه أو مثله.

5- **تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة**[34]: إقامة المشاريع الاقتصادية ,والتنموية, وما يلزم ذلك من شق للطرقات، وبناء للجسور ,ومَدِّ شبكات السكك الحديدية؛ بما يخدم

المصالح العامة، التي قد يترتب عليها أحياناً ترحيل بعض السكان من أماكنهم إلى أماكن أخرى، أو استقطاع أجزاء من أرضهم، والتي تضر بالمصلحة الخاصة لبعض الأفراد، يجب أن لا تحول الأخيرة من إقامة هذه المشاريع.

6- **ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب** [35]: على السلطات المختصة أن ترعى مصالح الناس, وأن تؤدي دورها ,الذي يساعد على حفظ البيئة ,ومنع تلوثها , فعلى سبيل المثال يجب على ولي الأمر أن يمنع تلوث المياه ,وتسرب المياه العادمة ,ومياه الصرف الصحي إليها؛ لما يترتب على هذا التسرب من مخاطرَ عظيمة , وهذا يوجب عليه إقامة مشاريع للصرف الصحي لمنع هذا الضرر.

خامسا: سلامة البيئة وحفظها أحد مقاصد التشريع

وفيما يلي إيضاح ذلك:

1 – اعتبار سلامة البيئة مقصداً شرعياً بذاته

ينطبق على (سلامة البيئة وحفظها) لأنه يتوقف عليه التمكن من تحقيق الهدف من أداء التكاليف الشرعية، وهو "إخراج المكلف من داعية هواه، ليكون عبداً لله اضطراراً"[36] ، فإن البيئة إذا لم تكن سليمة نقية خالية ستعوق المكلف عن أداء ما أوجبه عليه الله من حقوق لربه تعالى ثم لنفسه وأهله ومجتمعه ومن يشاركون في الحياة.

2- اعتبار سلامة البيئة مقصداً متمماً للواجب

بالتأمل في الأثر يترتب على سلامة البيئة وحفظها يتبين أنه يرجع إلى حفظ البيئة وحفظ النفس والنسل، فإنَّ أكثر العبادات والواجبات الدينية والدنيوية لا يمكن أداؤها أصلا، أو على الوجه الصحيح إلا إذا توافرت البيئة التي يعيش فيها الإنسان ويتعامل مع عناصرها من ماء نقي طاهر، وجو صحي يبقي على قوة بدنه وغذاء نافع لا يضعف بدنه، ويلحق به الأمراض والأعراض السيئة التي يورث بعضها لسلالته.

و إن صحة الإنسان التي تهدف الشريعة إلى حفظها وصونها تقتضي أن كل تصرف سلبي في البيئة يؤثر سلباً على صحة الإنسان غير مقبول شرعاً؛ لأنه يتنافى ومقاصد الشريعة[37].

وإذا كان الطرح المعاصر السابق لمكانه حماية البيئة على أنها من مجالات التعاون لتحقيق مقصد الاستخلاف في الأرض، فإنَّ هناك طرحاً أقوي لموقع حفظ البيئة وهو أنه مقصد أساسي (ضروري) من مقاصد الشريعة، وذلك ما قرره الدكتور عبد المجيد النجار، وفيما يلي جوانب من بياناته لتقرير تلك

الدعوى، فهو بعد أن أشار إلى أن على الإنسان أن ينجز مهمة الخلافة في الأرض، متمثلاً في كل ما له علاقة بالحياة الإنسانية من أرض وما عليها من حيوان ونبات وجماد، وما يحيط بها من غلاف جوي ومن سماء وما فيها من كواكب وإجرام تبين أن لها علاقة بالحياة وتأثيرا فيها قال:

"المتأمل في أحكام الشريعة يجد أن كثيراً منها إنما شرع لتحقيق مقصد حفظ البيئة الطبيعية أن تعمل فيها يد الإنسان بتصرفات تخل بنظامها، أو تعطل مقدراتها على أن تكون صالحة للحياة منمية لها، أو تربك توازنها الذي تقوم عليه عناصرها المختلفة، وقد جاءت تلك الأحكام متضافرة كلها على منع الإنسان من ذلك، وأمره بان يبقى على الطبيعة صالحة كما خلقها الله، وأن يمارس عليها مهمة الخلافة على ذلك الوجه من الصلاح، وما فتئت تلك الأحكام تظهر أهميتها وتتأكد الحكمة في أوامرها ونواهيها، وذلك كلما أسفرت الأزمة البيئية عن وجهها الكالح، وتعالت نذرها بالمصير البائس للحياة، وذلك هو مبرر أن نفرد هذا المقصد الضروري بفصل مستقل من فصول المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية.

وجماع ما جاء في الدين من أمر بحفظ البيئة ونهي عن أي ضرر بها ما جاء في القرآن والسنَّة من نهي مغلظ عن الفساد في الأرض، ومن تشنيع كبير على هذا الصنيع، وذلك في مواطن متعددة ومواقف مختلفة مما يدلّ على أن حفظ البيئة من الفساد مقصد ضروري من مقاصد الشريعة الإسلامية، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: "وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا"[38].

وانطلق فيما ذهب إليه من مدلول الآيات بأن الفساد هنا لا يقتصر على الفساد الديني والأخلاقي والاجتماعي، وإنما يشمل الفساد الذي يطال البيئة الطبيعية وهو مقصد أساسي فيها وليس ثانوياً ملحقاً بذلك.

واستشهد بما ذكره الطبري عن السدّي في تفسير "وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ"[39] بأن الذي نزلت فيه هذه الآية إنّما نزلت في قتلة حُمُرا لقوم من المسلمين، وإحراقه زرعا لهم، وذلك وإن كان جائزاً أن يكون كذلك، فغير فاسد أن تكون الآية نزلت فيه، والمراد بها كلّ من سلك سبيله في قتل كل ما قتل من الحيوان الذي لا يحل قتله بحال، والذي يحل قتله في بعض الأحوال إذا قتله بغير حقّ، بل ذلك كذلك عندي؛ لأنّ الله تعالى لم يخصص من ذلك شيئا دون شيء بل عمّه أي: وهذا التعميم يشمل بصفة أساسية الإفساد البيئي.

وفي تفصيل الحفاظ على البيئة من هذا الفساد، جاءت أحكام شرعية كثيرة تهدف إلى تحقيق هذا المقصد الشرعي، وهي أحكام تلتقي كلها عند ذات المقصد وإن كانت تصل إليه من زوايا مختلفة، فمن حفظها من التلف إلى حفظها من التلوّث، إلى حفظها من السرف الاستهلاكي، إلى حفظها بالتنمية المستديمة، علماً بأنّ الأحكام الشرعية الواردة في هذا الشأن لم تكن مفصلة بصفة مباشرة بما قد يتصور البعض أنّه قوانين قد وضعت خصيصاً لمعالجة الأزمة البيئية الراهنة، وَإِنَّمَا هي إشارات وتنبيهات وتوجيهات تنحو أحيانا منحى التعميم، وتنحو أحيانا أخرى منحى التفصيل، ولكنها تهدف كلها إلى تأسيس ثقافة بيئية تعصم التصرف الإنساني من الاعتداء إلى المحيط الطبيعي بالفساد في أي وضع كان فيه، وفي أي مستوى حضاري وصل إليه[40].

الخاتمة

وبعد تجوالنا في رحاب هذا الموضوع الحيوي ومن خلال النظرة الاستنتاجية إلى ما وقفت الباحثة عليه من نصوص تشريعية واجتهادات فقهية في مجال حماية البيئة، فإنه يمكن إبراز النتائج الآتية:

1- ظهر لنا أن الإنسان هو العامل المهم في حماية البيئة أو إفسادها، ولذا ينبغي أن يتم الاهتمام برفع مستوى ثقافة الفرد ليتم الاهتمام ببيئته.

2- جاءت الشريعة الإسلامية بأصولها وفروعها وقواعدها الفقهية ومقاصدها التشريعية بمنهج شامل يضمن رعاية البيئة، ويقوم هذا المنهج على أساس الربط الوثيق بين عقيدة الإنسان واستقامته وبين صلاح بيئته وازدهارها، وجعلت الإخلال بها إخلالا بالدين وخروجا عن منهج رب العالمين.

3- وضعت الشريعة الإسلامية تصورا شاملا للنظام البيئي شمل الأحكام التي تكفل الحفاظ عليه نقيا طاهرا من كل أذى أو ضرر.

4- وضعت الشريعة الإسلامية أحكاما ونظما تشجع على استصلاح الموارد البيئية مثل: إحياء الأراضي البور واستغلالها بالزراعة والاستثمار. كما حظرت الشريعة قطع الشجر والنبات والعبث به، كنا جاءت بأحكام واضحة ومفصلة تقوم على حفظ الهواء وإبقائه نقيا صافيا من كل ما يلوثه أو يفسده.

5- لما كان الشريعة سباقة لتنويه بأهمية البيئة، وحذر ت من إفساد مكوناتها الثلاثة، فلا بد من الاهتمام بما جاءت به على مستوى الفرد والأسرة والدول.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد اللخمي الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان، الطبعة، الطبعة الأولى 1417هـ،
- أحمد بن حنبل أبو عبدا لله الشيباني، **مسند** الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة
- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى دار الفكر، بيروت، ج9، ص 146
- أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411 هـ، 1991م،
- أبو داود، سنن أبي داود، دار الفكر،
- تاج الدين عبد الوهاب بن علي ابن عبد الكافي السبكي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1411 هـ، 1991 م .
- صالح محمود وهبي، البيئة من منظور إسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004م،
- فؤاد عبد اللطيف السرطاوي، البيئة والبعد الإسلامي، دار المسيرة، عمان، ط1، 1420 هـ، 1999م
- مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، الصحيح، دار الفكر،
- مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية، بيروت،
- مُحَمَّد عبد الرؤوف المناوي :فيض القدير، المكتبة التجارية الكبرى مصر، الطبعة الأولى ،1356هـ،

مواقع الانترنيت

- الصمادي، منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة، على الموقع: www.islamweb.net
- صلاحين، التدابير الشرعية لحماية البيئة، على الموقع: www.islamtoday.net.
- عصام الدين مصطفى الشعار، البيئة والحفاظ عليها في الشريعة الإسلامية على الموقع: www.islamonline.ne

الهوامش:

[1] سورة الفرقان، آية 2

[2] سورة ق، آية 7

[3] سورة سبأ، آية 21

[4] سورة إبراهيم، آية 32،33.

[5] الصمادي، منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة، على الموقع: www.islamweb.net

[6] سورة الأنعام، آية 141.

[7] سورة البقرة، آية 205

[8] البخاري، الصحيح، دار الفكر، ج 5، ص2229

[9] البخاري، الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ج1، ص 168. قال الألباني: صحيح، المصدر نفسه.

[10] المناوي، فيض القدير، المكتبة التجارية الكبرى مصر، الطبعة الأولى 1356،هـ، ج3، ص 30

[11] البيهقي، السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت، ج9، ص 146

[12] سورة النحل آية،5،6،7

[13] سورة البقرة، آية 205.

[14] البخاري، الأدب المفرد، المصدر السابق، ج1، ص138.

[15] النسائي، السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411 هـ، 1991م، ج3، ص 73,

[16] أبو داود، سنن أبي داود، دار الفكر، ج 2، ص 371

[17] صالح محمود وهبي، البيئة من منظور إسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004م، ص .134 صلاحين، التدابير الشرعية لحماية البيئة، على الموقع www.islamtoday.net:

[18] سورة الأنبياء، آية 30

[19] سورة فاطر، آية 27

[20] النسائي، السنن الكبرى، المصدر السابق، ج8، ص 79,

[21] سورة الأنبياء، آية 32

[22] سورة الروم، آية 48.

[23] أحمد بن حنبل، المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ج3، ص 143

[24] أبو داود، سنن أبي داود، المصدر السابق، ج 2، ص 782

[25] سورة هود، آية 61

[26] سورة الأعراف، آية 10

[27] النسائي، السنن الكبرى، المصدر السابق، ج3، 403

[28] صلاحين التدابير الشرعية لحماية البيئة، ص124 . فؤاد عبد اللطيف السرطاوي، البيئة والبعد الإسلامي، دار المسيرة، عمان، ط1، 1420 هـ، 1 999م، ص 53

[29] سنن أبي داود، المصدر السابق، ح2، 171

[30] السبكي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ، 1991 م، ص41

[31] المصدر نفسه.

[32] المصدر نفسه.

[33] المصدر نفسه.

[34] الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان، الطبعة، الطبعة الأولى 1417 هـ، ج،3، ص 92

[35] السبكي، الأشباه والنظائر، المصدر السابق، ص 88

[36] الشاطبي، الموافقات المصدر السابق، 100/2.

[37] عصام الدين مصطفى الشعار، البيئة والحفاظ عليها في الشريعة الإسلامية على الموقع:www.islamonline.ne

[38] سورة الأعراف: 56

[39] سورة البقرة:205

[40] " عبد المجيد النجار مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة: نقلا عن. عصام الدين مصطفى الشعار، البيئة والحفاظ عليها في الشريعة الإسلامية، المرجع السابق